

العربية ومكانتها بين اللغات السامية؛ دراسة وتقييم

محمد صالح شريف عسكري*

الملخص

يتناول هذا المقال قصدية اختيار اللغة العربية، باعتبارها أفضل اللغات الحية، وأكمل اللغات السامية، لتبليغ رسالة الإسلام، وتنزيل كتاب الله العزيز، بهذه اللغة، من خلال استعراض آراء علماء اللغة، في اللغات السامية، وفروعها، وموطن شعوبها، والأطوار التي مرت بها هذه اللغات، من ضعف وقوة، والعلاقات التي تربط بعضها ببعض، وما بقي منها قائماً، حتى الآن، وما اندثر، كما يتحدث المقال، بمقدار ما يتسع له المجال، عن ما يميز العربية عن الساميات، في الأصول والاشتقاقات وتنوع المفردات، وطرائق الكلام، وأدوات التعبير عن ألطف الأمور وأدق القضايا؛ للوصول إلى بيان تفوق العربية علي غيرها بعد أن أصبحت أكمل أخواتها السامية مضموناً، وأقدرها أداءاً للمعاني؛ الأمر الذي جعلها أهلاً لاحتضان كتاب الله العزيز، وكلام نبيه الكريم (ص)، فنالت بهذه المكانة المتميزة من التشريف والشأن ما لم تنله لغة أخرى من لغات البشر. كما حاول المقال أن يجعل القارئ يدرك من ثنايا البحث، بعد مشاهدة انحسار غير العربية، وبقاء الأخيرة؛ أن اختيار أكمل اللغات، أي العربية، لإبلاغ أكمل الرسائل لم يكن عملاً اعتباطياً، ودون قصد من الشارع الحكيم.

الكلمات الدلالية: قصدية اللغة، اللغة العربية، إمتياز العربية، السامية.

المقدمة

تتنمى اللغة العربية، علي رأى علماء اللغة المعاصرين، لمجموعة من اللغات، التي أطلقوا عليها اسم اللغات الساميّة، تعويلاً علي وجود خصائص مشتركة، بين هذه اللغات، سوغت للعلماء تصنيفها في أسرة لغوية واحدة. وقد تواصل الحديث، عن هذه المجموعة، في الدراسات الحديثة، خاصة الساميّة منها، وتعدّد القول فيها، وتشعب الكلام حول حقيقتها وموطنها وشعوبها ولغاتها، وموقع العربية منها. وقد أدلى كلُّ باحث من الشرقيين والغربيين، بدلوه في هذا المضمار، وانتصر لوجهة، دون أخرى، في سجال صعب، وتقابل وتخطب واضطراب في الآراء. غير أنّ الذي يلاحظه المتتبع لأهم المصادر التي تناولت الحديث عن اللغات الساميّة، منذ الدراسات التي نشرها الغربيون، أمثال: جويدي، نولدكه وولفنسون أو بروكلمان وموسكاتي، وغيرهم من الباحثين الغربيين، أو الشرقيين: أمثال لويس عوض، وجرجى زيدان، وعلى عبد الواحد وافي، وغازي طليمات وحسن ظاها أو غيرهم في مؤلفاتهم التي وردت بعضها في مسرد المصادر، يلاحظ المتتبع أنّ هؤلاء جميعاً لم يتناولوا موضوع اكتمال اللغة العربية وامتيازها علي سائر أخواتها السامية، ولم يطرقوا هذا الهدف؛ ولم يصرحوا - عن قصد أو دون قصد - بما تمتاز به اللغة العربية علي أخواتها الساميّات، وما نجم عن امتياز العربية وتطورها واكتمالها، من مقدرة فائقة علي أداء المعاني والتعبير عن خلجات النفس الإنسانية، وحاجات الإنسان: الفكرية والعاطفية؛ والتي كان من ثمارها، تشرفها باحتضان القرآن الكريم الذي نزل بهذه اللغة، وتسمنها أرقى مراتب الكمال، وقد حاول هذا المقال أن يطرق هذا الموضوع ويعالجه بما وسعه من الأدلة والأقوال المتناثرة في مضانها، وبمقدار ما سمحت به مساحة المقال؛ تعويلاً علي المنهج التاريخي، والواقع الفعلي للعربية وأخواتها، وليفتح بذلك آفاق القول؛ لدراسات لاحقة، أكثر سعة وتفصيلاً؛ تأسيساً علي أنّ نزول أعظم كتاب سماوي، وإرسال خاتم الرسل (ص) بهذه اللغة، مبلغاً ومبشراً ونذيراً، لم يكن عملاً اعتباطياً، أو ارتجالياً، وأنّ قصديّة هذا الاختيار لا يبعد ان يكون أحد أوجه إعجاز كتاب الله العزيز. وهذه هي الفرضية التي حاول المقال إثباتها.

اللغات السامية: تعريف وتاريخ

تعريفها

تطلق "اللغات السامية" علي جملة من اللغات التي كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في بلاد آسيا وأفريقيا، سواء منها ما عفت آثاره، كالأكدية (الآشورية - البابلية) والسبئية وغيرهما، أو ما لا يزال باقياً إلى الآن، كالعربية، والعبرية، والسريانية. (ولفسون، لاتا: ٩؛ نولدكه، ١٩٦٤م: ٨؛ موسكاتي وآخرون، ١٩٩٣م: ١٣)

مصطلح السامية

وأول من استعمل هذا الاصطلاح، هو العالم النمساوي شلوتسر Schlozer في أبحاثه، وتحقيقاته في تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٧٨١م. (نولدكه، ١٩٦٤م: ٨؛ ولفسون، لاتا: ٩؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ١١)، اعتماداً علي جدول تقسيم الشعوب، الوارد في التوراة. إذ جاء فيه: «وهذه مواليد بني سام وحام ويافث و ولد لهم بنون، بعد الطوفان ... وسام أبو كل بني عابر، أخو يافث الكبير، ولد له أيضاً بنون. بنو سام، عيلام، وآشور، وأرفكشاد، ولود و آرام.» (الكتاب المقدس، ١٩٠٧م: سفر التكوين/الاصحاح العاشر: ١٦)

أما التاريخ

فهذا الجدول - حسب رأى علماء اللغة - أقدم تقسيم عن أنساب الأمم السامية، وهو كما يبدو يقسم الأسرة البشرية إلى سام، وحام، ويافث. (ولفسون، لاتا: ١٠؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ١١)

ويفترض هذا التقسيم أن أبناء سام انتشروا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أما أبناء حام فهم أصل المتحدثين باللغات الإفريقية، وأما أبناء يافث فهم أصل من تحدث بعدد من اللغات في أوروبا وآسيا. وهذا التصنيف الأساسى لم يكن يحمل في طياته أى هرمية أو تقابل بين اللغات، فقد كانت المسافة بينها جنينية، كالمسافة بين الأقارب. (فرستيغ، ٢٠٠٣م: ١٤)

ومن العلماء، من خالف هذه التسمية، كما خالف إدراج بعض الشعوب في هذا الجدول، ذلك لأن العلم الحديث، يفهم منها الآن، شيئاً يختلف إلى حد ما، عما فهمه

جدول الشعوب في التوراة؛ لأنه بنى تقسيمه علي اعتبارات سياسية، وحدود جغرافية فحسب؛ ولذلك جعل العيلاميين Elymeens، واللوديين Lydiens من أبناء سام؛ لأنهما كانا من رعايا الدولة الآشورية، في حين لا توجد بين هذين الشعبين قرابة من ناحية، كما أنه ليس بينها وبين الآشوريين قرابة من ناحية أخرى. كما جعل الفينقيين من أبناء حام؛ بسبب صلاتهم السياسية بالمصريين، علي الرغم من أنهم أقرب الشعوب إلى العبريين، (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٢٥) كما لم يقدم لنا مؤلف جدول الشعوب، حسب - سفر التكوين، الاصحاح ١٠ - صورة واضحة عن العلاقات بين شعوب جنوبي الجزيرة العربية وشعوب الحبشة.

وخالف هذا التقسيم أيضاً، نخبة من الغربيين، أمثال تيودور نولدكه (اللغات السامية، ١٩٦٤م: ٨)، وكارل هيكير "مونستر"، تعويلا علي ما جاء في الاصحاح العاشر، (ص ١٦) فما بعده، وقال: «والعرب أنفسهم لم يُذكروا علي وجه التحديد، ولكن ذكرت مثلاً الأقاليم العربية الجنوبية، مثل حضرموت وسبأ.» (فيشر، ٢٠٠٢م: ٤٤، ٢١-٤٥)، كما خالف، هذا التقسيم نخبة من الشرقيين، أمثال عبد الواحد وافي، (فقه اللغة، لا تا: ٢)، وكمال ربحي. (اللغة العبرية، ١٩٦٣م: ٦-٧)

ويلاحظ الباحث، من خلال تضارب الآراء واختلاف النظرات، أنَّ التخبط يلف مسألة تقسيم الشعوب الساميّة، فأقدم المصادر عند الغربيين هو التوراة لا ينجو من النقد والتشكيك، وكذلك الآراء التي استخلصت من المصادر الأخرى، لم تجد القبول المطلق. ولا زال البحث في هذا المضمار، وغيره مما يرتبط بالتاريخ المعرق بالقدم، بحاجة ماسة للتنقيب والسبر الدقيق. ولا يزال السجال الحاد قائماً بين فرضيتين، تري إحداهما: أنَّ التقارب التاريخي بين الشعوب، يمكن الكشف عنه، عن طريق العواطف والمشاعر والميول المختلفة في العلاقات والمأكّل والمشرب، خاصة بين الشعوب التي تسكن في إقليم واحد، ومناطق متقاربة، بينما تري الأخرى، أنَّ التقارب التاريخي بين الشعوب، يمكن الكشف عنه، من خلال لغات الشعوب، وما تحملها مفرداتها وأساليب كلامها من تشابه واختلاف، وقد عني بهذه الفرضية الباحثون في مجال فقه اللغة المقارن. ويبدو من خلال الأبحاث الميدانية اللغوية في بلاد آسيا وغيرها، ومن خلال الدراسات

المقارنة، أن أنصار الفرضية الثانية استطاعوا أن يحرزوا شيئاً من التقدم. (للتوسع: ظاظا، ١٩٩٠م: ١٠؛ والسامرائي، ١٩٨٥م: ٩)

السامية وعلماء العربية

ومن المعلوم، أن الصلات القائمة، بين اللغات السامية المختلفة، من جهة واللغة العربية من جهة أخرى، كانت معروفة، قبل أيام "شلوتسر" بزمان طويل، عند علماء العربية، أمثال الخليل ابن أحمد الفراهيدي؛ فقد أشار الخليل في كتابه العين إلى العلاقة بين الكنعانية والعربية وقال: «وكنعان بن سام بن نوح، إليه يُنسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تقارب العربية.» (١٤٠٥ق: ١/٢٠٥) وأوضح ابن حزم الأندلسي، أن من تدبر العربية والعبرية والسريانية، أيقن أن اختلافها، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس، على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وإنها لغة واحدة في الأصل (الإحكام في أصول الأحكام، ١٣٤٥ق: ٣/١)، كما اهتدي إلى ذلك كثير من علماء العربية المعاصرين. (السامرائي، ١٩٨٥م: ١٥)

ومجموعة اللغات السامية نفسها، لم تكن قد تحددت، وتميّزت عند قدامى المحققين، بأنها سامية، وقد كان يشار إلى هذه اللغات، كغيرها من لغات آسيا، على أنها، بوجه عام، لغات شرقية. (موسكاتي وآخرون، ١٩٩٣م: ١٤)

وإذا كانت الصلات بين هذه الشعوب قد تبينّت، عند القدامى من علماء المسلمين، وأصبحت أكثر وضوحاً عند المعاصرين، فما السر وراء هذه الصلات، وما العلة في التداخل الموجود بين لغات شعوبها؟ يري الباحث أن حديث المواطن الآتي، يكشف جانباً من السؤال، فإلى ذلك:

موطن اللغات السامية

والمناطق التي انتشرت فيها اللغات السامية، خلال الأزمنة القديمة، من بلاد آسيا الغربية (من الشرق إلى الغرب)، كما حددها علماء الساميات، هي الآتية:

«ما بين النهرين Mesopotamia، وسورية-فلسطين Syria-Palestine، وشبه الجزيرة العربية Arabia... وأثيوبية Ethiopia، فيؤلف ما بين النهرين، وسورية - فلسطين، والجزيرة العربية وأثيوبية، لذلك، موطن اللغات السامية القديم. ولم تنتشر

وراء هذه المنطقة، إلا نتيجة تطورات ثانوية، كالهجرة والاستيطان Colonization، أو الفتح Conquest. «(السابق، أيضاً: فرستينغ، ٢٠٠٣م: ٢١) وفي أقصى الغرب من القارة الآسيوية، الذى يسمى أحياناً بالشرق الأدنى، وتساهلاً بالشرق الأوسط، عاش أقوامٌ تتقاربُ لغاتهم، وقامت لهم حضارات متعاصرة، أو متعاقبة، هم الذين أطلق عليهم اسم الساميين. (ظاظا، ١٩٩٠م: ٥) ويطلق الآن لقب الساميين، فى الدراسات السامية، على الشعوب الآرامية، والكنعانية (الفنيقية والعبرية)، والعربية، اليمنية، والبابلية - الآشورية، وما انحدر منها من شعوب. (وافى، لاتا: ٢-٣)

ولا توجد كتلة من الأمم، ترتبط لغاتها، بعضها ببعض، كالارتباط الذى كان بين اللغات السامية. (ولفسون، لاتا: ١٠؛ موسكاتى، لاتا: ٤٤) ولما تبين لعلماء اللغة، وجود هذا الارتباط، وهذه العلاقة المتينة، بين لغات الشعوب السامية، ساقطهم هذه العلاقة، إلى الاعتقاد بوجود أصل واحد، لجميع اللغات السامية، وأن هذه اللغة الأصلية، كانت منتشرة فى منطقة جغرافية واسعة، وأن لهجات مختلفه، نجمت من هذه اللغة الأصلية، غير أنها لم تكن ظاهرة ومخالفة للأصل، إلا بعد انتشار قبائل هذه الأسرة السامية الكبرى فى مناطق شتى، وهجرت بعضها من موطنها الأصلي، ثم بدت تأثيرات البيئة الجديدة فى الألسنة، فاخذت تبرز وتنمو حتى أصبحت تلك اللهجات مغايرة، كأن كلًّا منها لغة مستقلة. (ولفسون، لاتا: ١١)

موطن الساميين

وتسائل العلماء، إذا كان لهذه الشعوب موطن أصلى، انتشرت منه، فأين كان هذا الموطن الأصلى. (بروكلمان، ١٩٧٧م: ١٢؛ ولفسون، لاتا: ١١) إنَّ المهد الجغرافى الأول للغة السامية، بحث حير العلماء. (ظاظا، ١٩٩٠م: ١١)، وقد ذهبوا فيه مذاهب شتى، ولم يصلوا بعدُ بشأنه إلى رأى يقينى. وأهم ما قيل بهذا الصدد يندرج فى ستة آراء:

١- أرض الحبشة: يذهب بعض العلماء، الى أنَّ الموطن الأصلى للساميين، هى بلاد الحبشة، ومنها نزحوا إلى القسم الجنوبي، ببلاد العرب عن طريق باب المندب، ومن هذا

القسم انتشروا في مختلف أنحاء الجزيرة العربية. وصاحب هذا رأى المستشرق نولدكه، الذى يقول: «والقراية الموجودة بين اللغتين: السامية والحامية، تدعو إلى الاعتقاد بأنَّ الموطن الأصلي للساميين، كان في إفريقيا.» (اللغات السامية، ١٩٦٤م: ٢١-٢٢) غير أنه يعود فيذكر، أنَّ نظريته تلك، ليست إلا فرضاً قابلاً للنقض. وخالف هذا الرأى وفى (فقه، لاتا: ٦) وآخرون قائلين: «كيف اختفت من إفريقيا إذن، جميع اللغات السامية، بحيث لا تعود إلى الظهور، إلا في بعض المناطق الفينيقية، وبعد الفتح الإسلامى في القرن السابع الميلادى؟» (ظا، ١٩٩٠م: ١٤؛ أيضاً: عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٨)

٢- شمال أفريقيا: ويذهب آخرون، إلى أنَّ الموطن الأول للساميين، كان شمال إفريقيا، ومنه نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس. (وافى، لاتا: ٦)

٣- حدود أرمينيا وكردستان: ويذهب القائلون بهذا الرأى إلى أنَّ الموطن الأصلي يقع علي حدود أرمينيا وكردستان.

ويعتمد أصحاب هذا الرأى علي أدلة لغوية ودينية توراتية. منهم المستشرق الفرنسى: (رينان) وغيره، اعتماداً علي ما جاء في سفر التكوين (الاصحاح الثامن/٤) من أن سفينة نوح رَسَتْ علي جبل قريب من ناحية أرفكشاد، وهى تقع علي حدود أرمينيا وكردستان. (نولدكه، ١٩٦٤م: ٢٢؛ أيضاً: الحموى الرومى، لاتا: ١٦/٠١)

ويترتب علي هذا الرأى - حسب رأى الباحثين - أن تكون مرتفعات كردستان، مهداً للإنسانية كلها، لا للساميين وحدهم، حيث نزل من هذه السفينة في هذا المكان المفترض: نوح وأبناؤه الثلاثة: سام وحام ويافت. (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٩؛ ظا، ١٩٩٠م: ٩) ويذهب نولدكه (اللغات السامية، ١٩٦٤م: ٢٣) إلى أنه «رأى خيالى تماماً»، هذا إلى أنه يتعارض تماماً مع رأى آخر، في سفر التكوين (الاصحاح الحادى عشر/١) الذى يرجع إلى مصادر أخرى، ويذكر أنَّ كلَّ الشعوب، ومن بينها الساميون أيضاً، قد انحدروا أصلاً من بابل.

ويعتقد عالم اللغويات المصرى، الدكتور على عبد الواحد وفى (فقه، لاتا: ٦)، أنَّ الآراء الثلاثة السابقة هى أضعف الآراء، التى قيلت بهذا الصدد؛ إذ لم يقدم أصحابها بين يدى مذهبهم دليلاً يعتد به.

٤- جنوب العراق

تنقسم بلاد العراق، من الوجهة الجغرافية، إلى منطقة شمالية نجدية، ومنطقة جنوبية تهاميّة، فأما المنطقة الجنوبية، فكانت مسكونة، من أقدم الأزمنة التاريخية بقبائل سومرية، تضاربت الآراء حول زمن هجرتها إلى هذه المنطقة، ومواطنها الأولى. ويرى بعض الباحثين، أنَّ العنصر السامي في العراق كان موجوداً، قبل وصول السومريين إليه. (الأحمد، ١٩٧٥م: ٤١-٤٦)

وفي هذه المنطقة الجنوبية، من بلاد العراق، نشأت الحضارة السومرية، ونمت نمواً عظيماً، وامتد فيها العمران المزدهر، الذي كان بعد ذلك أساساً لحضارة القبائل الساميّة، قبل الألف الثالث ق.م، وكونت مُلكاً عظيماً، في منطقة بابل. (ولفسون، لاتا: ٢٨؛ الأحمد، ١٩٧٥م: ٤٣-٤٥، فما بعد)

أما المنطقة الشمالية، فكانت موطن القبائل الآشورية. (موسكاتي، لاتا: ٦٩-٧١)، التي اتخذت مدينة آشور Assur قاعدة لدولتها.

وقد قال بهذا الرأي، إرنست رينان، وفرانسوا لنورمان، وفريتز هومل، وبيترز، كما كان من أوائل القائلين به، الإيطالي إغناطيوس جويدي، في بحث نشره في روما بعنوان "مهد الشعوب الساميّة" سنة ١٨٧٨-١٨٧٩م. قال فيه:

«إن المهد الأصلي للأمم الساميّة، كان في نواحي جنوب العراق، علي نهر الفرات، وقد سرد عدداً من الكلمات المألوفة، في جميع اللغات السامية عن العمران والحيوان والنبات، وقال إنَّ أول من استعملها، هي أمم تلك المنطقة، ثم أخذها عنهم جميع الساميين.» (ولفسون، لاتا: ١١؛ ظا، ١٩٩٠م: ١٢)

وهذه الحجّة كما تبدو لغوية، وقد رفضها نولدكه، وآخرون. (هلال، ٢٠٠٤م: ٦٧، ٧٥؛ عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٤١)

٥- بلاد كنعان، في شمال سورية: وكانت تسمى في النقوش القديمة، ببلاد آمورو. وذهب إلى هذا الرأي المستشرق الأمريكي كلاي، وغيره. ومن الأدلة التي قدمها أصحاب هذا الرأي، وجود مقارنة فكرية بين الأساطير العراقية، والأساطير الفينيقية، وأساطير الساميين، في بلاد سورية. ومن الأدلة، أيضاً، وجود مدنيّة سحيقة للساميين،

في البلاد السورية القديمة، علي حين أنَّ بلاد العراق مثلاً، التي يري أصحاب المذهب الرابع أنَّها المهد الأول للساميين، كان يسكنها من قبلهم الشعب السومري، وكانت له فيها مدنية زاهرة قبل مدنيّتهم، وقد نزحوا إليها، في عصر كانت فيه بلاد سوريا القديمة، أهلة بأُمّ ساميّة، ذات مدنية عريقة. وخالف هذا الرأى عددٌ من الباحثين. (وافي، لاتا: ٧؛ ظاظا، ١٩٩٠م: ١٤)

٦- جزيرة العرب

يري بعض العلماء، أنَّ المهد الأول للساميين، كان القسم الجنوبي الغربي، من شبه جزيرة العرب (بلاد الحجاز ونجد واليمن وما إلى ذلك). وقد مال إلى هذا الرأى عددٌ من قدامي المستشرقين ومُحدّثيهم، وعلي رأسهم العلامتان رينان الفرنسي، وولفسون، وبروكلمان الألماني، ويذهب بروكلمان إلى «أنَّ الجزيرة العربية هي المكان، الذي يصلح لأن يكون مهد الساميين الأول». (فقه، ١٩٧٧م: ١٢) ويقول ولفسون: «والذي يمكننا أن نجزم به هو أنَّ أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأُمم الساميّة، التي علمنا أخبارها، وأسماءها، كانت من نزوح جموع ساميّة، من أرض الجزيرة، إلى بلدان المعمورة الدانية، والقاصية، في عصور مختلفة، فأقدم هجرة ساميّة، اتجهت نحو بابل كانت، من ناحية الجزيرة». (تاريخ اللغات السامية، لاتا: ١٢-١٣)

ويعتقد وافي، أنَّ هذا هو أصح الآراء وأقواها سنداً، وأكثرها اتفاقاً، مع آثار هذه الأُمم، وحقائق التاريخ؛ لوجود أدلة تاريخية، وجغرافية - ولغوية. (فقه، لاتا: ٧) ووافق هذا المعتقد كلٌّ من، غازي مختار طليمات، (في علم اللغة، ٢٠٠٠م: ٦٨-٦٩) وعالم الساميات، سبتينو موسكاتي (الحضارات السامية القديمة، لاتا: ٤٩-٥٤)، وحسن ظاظا (الساميون ولغاتهم، ١٩٩٠م: ٨٧)، ورمضان عبد التواب. (فصول، ١٩٩٩م: ٤١)

تقسيم اللغات الساميّة: (من الساميّة إلى العربية)

يفترض الباحثون، من خلال الدراسات اللغوية المقارنة، والاكتشافات التي قاموا بها، أنَّه في حوالى الألفية الثالثة، قبل الميلاد، حدث انفصال بين اللغات الساميّة الشمالية الشرقية (الأكدية، والتي تفرعت بعد ذلك بدورها لقسمين، هما البابلية والآشورية)، وباقي اللغات الساميّة، وفي حوالى الألفية الثانية، قبل الميلاد حدث انقسام آخر في

المجموعة الغربية من اللغات السامية، وكان الانقسام بين مجموعة الساميات الشمالية الغربية، والمجموعة الجنوبية الغربية. وفي حوالى الألفية الأولى، قبل الميلاد، انقسمت المجموعة الشمالية الغربية، إلى الكنعانية والآرامية، وانقسمت المجموعة الجنوبية الغربية، إلى العربية والعربية الجنوبية، والآثيوبية. ولكن الاكتشافات الحديثة، غيرت تلك الصورة تغييراً كبيراً، وخاصة اكتشاف المجموعة الأوجريتيية (الأوغاريتية) فى عام ١٩٢٩م، والعلبية عام ١٩٧٤م، وكلتا اللغتين الآن تعتبر من المجموعة الشمالية الغربية. (فرستينغ، ٢٠٠٣م: ٢٤)

وطبيعة الاكتشافات الاوغاريتية التى حملت معلومات جديدة عن الحروف وأنواعها، والكلمات وتراكيبها، واللغة وأصولها، ساقط الباحثين إلى تكوين آراء جديدة حول تقسيمات اللغات، وموطنها.

فاللغات السامية، وفقاً للاعتقاد السائد، تنقسم إلى ثلاثة فروع أساسية هى: (١) اللغات السامية الشمالية (ما بين النهرين). (٢) اللغات السامية الشمالية الغربية (سورية - فلسطين). (٣) اللغات السامية الجنوبية الغربية (أو الجنوبية) (الجزيرة العربية). (ولفنسون، لاتا: ٢٤)

أ- اللغات السامية الشمالية الشرقية: ويطلق عليها المحدثون، من علماء اللغة اسم (اللغات الأكادية) نسبةً إلى أكاد Akkad، واشتق اسمها من مدينة "أكاد Akkad" التى بناها (سرجون، Sargon، ٢٣٥٠-٢٢٩٤ ق.م) فى الجزء الشمالى من أرض بابل، لتكون عاصمة لدولته، وهى أول دولة سامية، شهدتها أرض الرافدين، أو كلدنة كما يسميها الساميون، (وافى، لاتا: ٢٠) أو (اللغات البابلية-الآشورية) نسبة إلى منطقى بابل وآشور. (الأنطاكى، لاتا: ٦٨)

تطلق جمهرة الباحثين، على لهجات هاتين الطائفتين اسم (البابلية - الاشورية)، أو (اللهجات الأكادية)، وأحياناً، يكتفى بعض الباحثين بإطلاق التسمية المقصورة على فريق، دون الآخر، فيُسمون لهجاتها كلها: اللهجات البابلية، حين كانت الدولة البابلية مزدهرة (فى المدة ٣٦٠٠ ق.م - ٢٠٠٠ ق.م) ويُسمونها (اللهجات الآشورية) حين كانت الدولة الآشورية مزدهرة (فى المدة من سنة ٢٠٠٠ ق.م - ٥٠٠ ق.م). (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٠) وحلت هذه اللغات [الأكادية] محل اللغة السومرية، التى اندثرت حوالى ٢٠٠٠ ق.م.

وكانت لغة هؤلاء الأكاديين الساميين النازحين، إلى هذه المنطقة، خاضعة لنفوذ لغة السومريين حتى حوالي ٢٠٠٠ ق.م، «فقد اقتبسوا عن السومريين طائفة كبيرة من مفردات لغتهم.» (وافي، لاتا: ٢٥)، كما استخدموا خطهم، نحو ثلاثة آلاف سنة، علي أقل تقدير، أي إلى نحو قرن واحد، قبل الميلاد. (ولفنسون، لاتا: ٣٦؛ فيشر، ٢٠٠٢م: ٢٤) وبعدها تميزت الأكديّة، إلى البابليّة، والآشوريّة:

البابليّة: وهى لهجة الجزء الجنوبي من المنطقة، وتشتمل علي البابليّة القديمة، (حوالي ٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ق.م)، مع عدة اختلافات لهجية، والبابليّة المتوسطة، (حوالي ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م)، والبابليّة الجديدة، (حوالي ١٠٠٠ ق.م إلى بدء العهد المسيحي). وأكثر البابليّة حداثة، وتدعي البابليّة المتأخرة، تبدأ من (حوالي ٦٠٠ ق.م). وتُسم بوجود ألفاظ آرامية فيها.

أمّا الآشوريّة، وهى لهجة الجزء الشمالى من المنطقة، وتشتمل علي الآشوريّة القديمة (حوالي ٢٠٠٠ ق.م إلى ١٥٠٠ ق.م)، والآشوريّة المتوسطة (حوالي ١٥٠٠ ق.م إلى ١٠٠٠ ق.م)، والآشوريّة الجديدة (حوالي ١٠٠٠ ق.م إلى ٦٠٠ ق.م)، وقد تأثرت بالآرامية في طورها الأخير. (وافي، لاتا: ٢٨-٢٩)

ب - الساميّة الشماليّة الغربيّة

ويحتوى هذا الفرع من اللغات، علي لغات مشكوك فيها، ولغات جري التثبت منها، بوجه عام، طبقاً للنقوش التي اكتشفت (من الألف الثاني قبل الميلاد). (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢١-٢٢)، وتضم (الكنعانية والآرامية):

١ - اللغة الكنعانية وفروعها (Canaanite)

يطلق لفظا كنعان والكنعانيين علي المنطقة السوريّة-الفلسطينيّة بأسرها، وعلي سكانها، كما تعنى الكنعانية: المظاهر اللغوية غير الآرامية، في الارض السوريّة-الفلسطينيّة، من نهاية الألف الثاني قبل الميلاد فما بعده. (موسكاتى، لاتا: ١١٤)

والكنعانيون طائفة سامية خرجت من الجزيرة العربيّة، واستوطنت الساحل الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، في سوريّة وفلسطين .

ويقال: إنهم خرجوا من الجزيرة، قبل القرن السابع والعشرين، أو الخامس والعشرين،

قبل الميلاد، علي خلاف بين المؤرخين، وقد امتد نفوذهم إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وأسسوا لهم مملكة زاهرة في أرض كنعان، قبل أن ينزح الآراميون إليها بأكثر من ألف سنة. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٢)

وتقسم الكنعانية إلى شمالية، وجنوبية:

أ - الكنعانية الشمالية، وتمثلها اللغة الأوغاريتية، وهي لغة النصوص المكتشفة عام ١٩٢٩م، وعام ١٩٥٣م في منطقة أوغاريت (Ugarit) شمالي اللاذقية قرب (رأس شمرة، أو شمرا حالياً). (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٢٧؛ موسكاتي، لاتا: ١١٦)، علي الساحل السوري للبحر المتوسط، من القرن الرابع عشر، و الخامس عشر، قبل الميلاد.

ولغة هذه النصوص المكتشفة تشابه اللغة الأكادية، إذ كتبت بالخط المسماري، الذي يسير علي النظام الأبجدي، خلافاً للأكادية، التي يسير فيها علي النظام المقطعي. (قدورة، ١٩٩٩م: ٥٩؛ الصالح، ١٩٧٦م: ٥٠)

وفي هذه المنطقة ظهرت الكتابة الأبجدية، في الألف الثاني قبل الميلاد. (بيطار، ١٩٩٧م: ٣٩) وعنها أخذ العالم الكتابة الأبجدية. (الصالح، ١٩٧٦م: ٥٠)

ب - الكنعانية الجنوبية، وفروعها:

اللغة العبرية، وقد اختلف في أصل اللغة العبرية، هل هي سامية، أو لغة أخرى، تأثرت بالفينيقية، أو أن لغتهم اندثرت، وحلَّ محلُّها اللسان الكنعاني، فهي تتفق معها (الفينيقية) في معظم مظاهر الصوت، وأصول المفردات والقواعد. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٩)

وعلي الرغم من تسميتها اللغة العبرية، فهي ليست لغة جميع العبريين، بل لغة فرع واحد من فروعهم، وهو فرع بني إسرائيل. (ربحى، ١٩٦٣م: ٣٣)

وقد مرت العبرية بطورين:

الطور الأول: عصر قيام الدولة، حوالى القرن الثالث عشر ق.م، إلى أواخر القرن الرابع ق.م. وكانت العبرية فيها لغة حية، في التخاطب، يتكلم بها العبريون ويكتبون، وهي العبرية القديمة.

ولهذا الطور مرحلتان:

المرحلة الأولى: منذ نشأتها إلى نفي بابل سنة ٥٨٦ ق.م. وتسمي، "العصر الذهبي للغة العبرية".

فبالنسبة للغة الخطاب، اتسع نفوذها وسلطانها، وبالنسبة للكتابة (ابتدأ من النصف الأخير من القرن التاسع ق.م. حتى أوائل القرن السادس ق.م.). دُوِّن بها معظم أسفار العهد القديم.

والمرحلة الثانية: تبدأ من نفى بابل سنة ٥٨٦ ق.م، إلى أواخر القرن الرابع ق.م، وتسمي، "المرحلة الفضية للغة العبرية".

فبالنسبة للغة التخاطب في هذه المرحلة: فقد أخذ شأنها يضمحل شيئاً فشيئاً، وبدأ النفوذ الآرامي يغزوها فلم يمكنهم المحافظة عليها في لغة التخاطب؛ لأنَّ تيار الآرامية كان أقوى فتغلب علي العبرية، حتى حذفت من التخاطب نهائياً. وبالنسبة للتدوين ظلت العبرية مستخدمة، فكتب بها بعض أسفار العهد القديم، كما دُوِّنت بها بعض الآثار الأدبية. الطور الثاني: يبدأ منذ أواخر القرن الرابع ق.م، إلى الآن وله مرحلتان أيضاً:

المرحلة الأولى: منذ أواخر القرن الرابع ق.م، حتى أول العصور الوسطي، وتسمي العبرية -حينئذ- العبرية الربانية أو التلمودية. وفي هذه المدة لم تكن العبرية لغة محادثة، وإنما بقيت لغة كتابة، وتدوين فحسب.

والعبرية في هذه المرحلة متاثرة كثيراً باللهجة الآرامية، وفيها آثارٌ من لغات الحثيين الهندية-الأوربية، (عَبُودى، ١٩٩١م: ٣٤٣) وفيها كلمات كثيرة، من اليونانية، واللاتينية، والفارسية.

وقد كتبت بها مؤلفات في مختلف الموضوعات، ظهرت بين أواخر القرن الأول الميلادي، ومنتصف القرن الثالث الميلادي.

ووضعت هذه الكتب في مؤلف يسمَّى "المنشا"، ومعناه الكتاب الثاني، بعد الكتاب الأول، هو العهد القديم، ومنه يفيد اليهود في حياتهم الدينية.

المرحلة الثانية: منذ العصور الوسطي إلى الآن، وفيها تسمَّى، "العبرية الحديثة". وفي هذه المرحلة، تأثرت كثيراً باللغة العربية؛ لتأثر الكاتبين بها بالثقافة العربية، في الشرق وفي الأندلس. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٢)

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر، قوى اتجاه اليهود، في أنحاء العالم، إلى إحياء اللغة العبرية، واستخدامها في ميادين الترجمة، والتأليف، والخطابة، والأدب، والصحافة. (وافي، لاتا: ٥٠)

وقد حاول اليهود الأوروبيون، من الألمان، والانجليز، والفرنسيين، وغيرهم إعادة النطق العبرى - من جديد - ونقلوا عليها بعض صور النطق الأوربي فحفقوا النطق، ببعض أصوات الحلق، وأصوات الاطباق، فالصاد - مثلاً - أصبحت قريبة من الصوت Z في الألمانية، وبدا تأثرها كثيراً بلغة "البيدش" وهى لهجة ألمانية، كان يتكلم بها يهود وسط أوربا وشرقها، ودخل كثير من الألفاظ، والتراكيب الأجنبية، إلى العبرية. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٢-١١٣؛ أيضاً: وافي، لاتا: ٤٩؛ نولدكه، ١٩٦٤م: ٣٢-٤٦)

الفينيقية، وهى لغة الساحل السورى، والفلسطينى، واللبنانى. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٤) وصلت إلينا اللغة الفينيقية، عن طريق نقوش قديمة، عثر عليها في المواطن الأولى للفينيقيين (صُور، صيدا، جُبيل Byblos ...)، وعُثر علي بعضها، في مستعمراتهم، ومواطن نفوذهم، وخاصة في جزر البحر الأبيض (قبرص وغيرها).

ووجه الشبه، بين اللغة التى دُوِّنت بها هذه النقوش، واللغة العبرية قوية جداً، فيما يتعلق بأصول الكلمات، أى الأصوات الساكنة التى تتألف منها أصول المفردات. وقد استنبط العلماء من هذه النقوش، أنَّ مسافة الخلف بين الفينيقية والعبرية، في أصوات المد، كانت أوسع من مسافة الخلف بينها في الأصوات الساكنة. وكذلك الشأن، فيما يتعلق بالقواعد، وخاصة في قواعد تركيب الجمل، فإنه يظهر منها، أنَّ الفينيقية تختلف عن العبرية، في هذه الناحية اختلافاً غير يسير. فمن ذلك مثلاً، أنها تستخدم فعلاً مساعداً قبل الفعل المتحدث عنه؛ لتحديد زمنه وبيان استمراره، كما الشأن في اللغة العربية (كان يضرب، كنا نضرب ... إلخ) وهذا الأسلوب لا نظير له في اللغة العبرية. (وافي، لاتا: ٣٧)

ويظهر أنَّ الفينيقية كانت أطول عمراً من العبرية، ولكن من المقطوع، به أنها أخذت تتأثر بالآرامية منذ عهد بعيد، وأنه لم يأت القرن الأول، قبل الميلاد حتى كانت الآرامية، قد قضت عليها، كما قضت علي العبرية من قبل. (وافي، لاتا: ٣٩؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ٢١-٢٢) ومن الفينيقية، تفرعت اللهجة المعروفة بالبونية "Puni"، التى تخص مدينة قرطاجنة [في تونس]، والبلاد المتاخمة لها، والمستعمرات الفينيقية، في حوض البحر المتوسط، بين القرنين التاسع والثانى ق.م. (قدورة، ١٩٩٩م: ٦١)

المؤابية Moabit، نسبة إلى بلاد مؤاب التى تقع في الجنوب الشرقى من البحر الميت.

وتمثلها مجموعة هوامش مدونة، علي رسائل أكادية، أرسلها بعض أمراء فلسطين إلى حكام مصر، ترجع نصوصها، إلى عهد امنحيب الثالث (١٤١٣-١٣٧٧ ق.م)، وامنحيب الرابع (أحناتون) (١٣٧٧-١٣٥٨ ق.م). (هلال، ٢٠٠٤ م: ١٠٤)

وكذلك يمثلها نقش (ميشع)، ملك مؤاب، وهو عبارة عن نصب، عُثر عليه في عام ١٨٦٨م، في (ديبا) بأرض مؤاب. ويرجع تاريخه إلى سنة ٨٤٢ ق.م. (ولفنسون، لاتا: ٩٧)

ونقش ميشع، يتفق في معظم الخصائص، مع بقية اللهجات الكنعانية، (راجع ترجمة النقش: معن، ٢٠٠٢ م: ١٤١)، وجعله بعض الباحثين، ممثلاً للهجة مستقلة عن الفينيقية. (هلال، ٢٠٠٤ م: ١٠٤)

٢ - الآرامية Aramaic

تؤلف الآرامية مجموعة لغوية مهمة، واسعة الانتشار، تأسيساً علي الدراسات اللغوية المقارنة. ويرجع أقدمها إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد. (موسكاتي وآخرون، ١٩٩٣ م: ٢٥) واختلطت باللغات المجاورة لها في الشرق أي العراق، والغرب أي سوريا وفلسطين. (هلال، ٢٠٠٤ م: ١١٥) «وإن كانت أقرب إلى اللغة العبرية-الفينيقية، إلا أنها انفصلت عنها تمام الانفصال... وقد اتسعت لغة الآراميين شيئاً فشيئاً حتى احتلت كل سوريا، حتى الأجزاء التي كانت محتلة قديماً بأقوام غير ساميين.» (نولدكه، ١٩٦٤ م: ٤٧)

ولها مرحلة قديمة تمتد إلى القرن الأول قبل الميلاد، ومرحلة لاحقة تتفرع فيها فرعين: غربية، شرقية.

اللغات الآرامية القديمة، وهي لغة أكثر النقوش القديمة المستمدة، من (دمشق وحماة وأريد وآشور)، وتعود إلى ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. كما تضم الآرامية الكلاسيكية والامبرطورية، وهي اللغة التي استعملت، في الامبراطورية الآشورية، والبابلية، والفارسية (من القرن السابع إلى الرابع قبل الميلاد)، واستمرت فروعها في الحقبة التي تلت ذلك. اعتماداً علي النقوش، التي اكتشفت في ما بين النهرين، وفارس، والهند الغربية، والأناضول، وشبه الجزيرة العربية، ومصر. وتضم أيضاً، آرامية الكتاب المقدس الموجودة في أجزاء من العهد القديم. (موسكاتي وآخرون، ١٩٩٣ م: ٢٥)

الآرامية الغربية، وتضم الآرامية النبطية، وهي لغة الأنباط، وهم سكان عرب (أصلاً) أقاموا دولة في سلع "البتراء" في بادية شرق الأردن، وفي (بُصْرَي) باقليم حوران في

جنوب سوريا (الحموى الرومي، لاتا: ٤٤١/١)، استمرت من القرن الأول قبل الميلاد، إلى القرن الثالث بعده. وسيطروا علي جنوب الشام، وشمال الجزيرة العربية (حول هجر/ مدائن صالح). (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٦)

وتتضم الآرامية التدمرية، وهى لغة سكان عرب (أصلًا) أقاموا دولة فى "تدمر" فى شرق سوريا، ازدهرت، بين القرنين الأول، قبل الميلاد، والثالث بعده. والآرامية الفلسطينية-اليهودية، وهى لغة الحديث فى فلسطين، زمن المسيح(ع)، وخلال القرون المسيحية الأولى. والآرامية السامرية، وهى لغة الترجوم السامرى (من المحتمل أنه من لغة القرن الرابع بعد الميلاد).

كما تضم الآرامية الفلسطينية النصرانية، وهى اللغة التى استعملها المكيون، بين القرنين الخامس والثامن، بعد الميلاد، وقد كتبت بحروف سريانية.

وتتضم أيضاً، بقايا الآرامية، يمكن سماعها اليوم فى قري (معلولة، وجبَعدين، وحبَجَا) فى جوار دمشق، وهى الآخذة بالانقراض. (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٧)

الآرامية الشرقية، وتتضم اللغة السريانية، وهى آرامية قديمة، نشأت فى الإقليم الذى تقع فيه مدينة الرها "إديسا" عند الرومان، واسمها الحالى "أورفا"، فى جنوب شرق تركيا، وكانت لغة "الرَّها"، قبل المسيح(ع)، قد سميت آرامية، وبعد انتشار النصرانية سُمِّيَتْ بالسريانية، وقد امتدت، من القرن الثالث إلى الثالث عشر بعد الميلاد، وإن كانت العربية حلَّت محلَّها، لغة التخاطب، فى أثناء الفتوح الإسلامية، فى القرن الثامن. وتتضم أيضاً، الآرامية البابلية، وهى لغة اليهود البابليين، كما تضم المندائية، وهى لغة طائفة الصابئة، من المندائيين الذين برزوا فيما بين النهرين، وتأثروا بالنطق الآشورى، وامتدت كتاباتهم، من القرن الثالث إلى الثامن بعد الميلاد. كذلك ضمت بقايا الآرامية الشرقية، ربَّما لا تزال حتى اليوم، فى جوار بحيرة أرميا، فى طور عبيدين، وقرب الموصل. (السابق، ١٩٩٣م: ٢٧-٢٨)

وقد انتهت الآرامية، وانقرضت من لغة التخاطب، فى العراق بعد الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، وإن بقيت السريانية لغة كتابة، وأدب، ودين إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى. (السامرائى، ١٩٨٥م: ٨)

كذلك انقرضت الآرامية، فى معظم مناطق سوريا، ولبنان، وفلسطين بعد الفتح

الإسلامي، وإن بقي الصراع الطويل بينها وبين العربية، في بعض المناطق، حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وانحرفت من جراء ذلك الآرامية، والعربية علي لسان أهلها. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٨)

ج - السامية الجنوبية الغربية

وتتضمن اللغات الحبشية (الأثيوبية)، والعربية. أمّا الحبشية، فهي لغة ذلك الشعب السامي، الذي خرج من جنوب الجزيرة العربية، فعبر البحر الأحمر، عن طريق باب المندب إلى البلاد المقابلة لهم، وهي الحبشة، أو إثيوبيا كما أطلق عليه الرحالة اليونان، واختلط بأهلها من الحاميين. ويرجح أنّ هذه الموجة من الساميين هاجرت، قبل المسيح، بوقت طويل. (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٣٤)

وأهم أقسام اللغات الحبشية السامية، هي: الجعزية، والامهرية، ولهجات أخرى متفرعة من الجعزية كاللهجة التيجيرينية، أو التيجيرية، وكذلك الجوراجية، ولهجة مدينة هرّز المتفرعة من الامهرية. وأقدم نصوص هذه اللغة، يرجع إلى سنة ٣٥٠ م. (بروكلمان، ١٩٧٧م: ٣٢، ٣٤)

وهذه الإمامة التاريخية بفروع اللغات السامية، وبما آلت إليه تكشف للقارئ الخارطة التي استقر عليه حال هذه اللغات؛ إذ أنّ بعضها إنّ لم يكن جليها، لم يعد أنّ يكون علي صورة لهجات متناثرة، في بلدان آسيا وشمال افريقيا، قياساً بما تملكها العربية، من مساحة جغرافية، أو متكلمين.

أمّا العربية، فتتقسم إلى قسمين هما: (العربية الجنوبية) و(العربية الشمالية). فالأولى: تعرف عند اللغويين العرب (باللغة الحميرية)، أو اللغة اليمنية القديمة. وموطنها اليمن، وجنوبي الجزيرة العربية، ولهجاتها هي: المعينية، والسبئية، والحضرمية وقد وصلت إلينا منها الكثير من النقوش، والتي تتراوح مدتها بين القرن الثاني عشر قبل الميلاد، والقرن السادس الميلادي. (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٤؛ للتوسع: ظاظا، ١٩٩٩م: ١٠٦)

وتتقسم الثانية: وهي العربية الشمالية، إلى: العربية البائدة، والعربية الباقية. فالعربية البائدة: هي عربية النقوش، التي دلت علي لهجات، كان يتكلم بها عشائر

عربية، تسكن شمالى الحجاز، وقد عرفت هذه النقوش باسم النقوش اللحيانية، بمنطقة العلا (دَدَن)، فى النصوص القديمة، والتمودية فى إقليم مدائن صالح والجوف، والصفوية فى جبل الصفا، وقد عثر عليها فى شمالى الجزيرة العربية، وشبه جزيرة سيناء، وجنوبى دمشق. (بيطار، ١٩٩٧م: ٩٤-٩٥)

ولتطرف هذه اللهجات فى الشمال، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية، وبعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز، قبل الإسلام، فقدت كثيراً من مقوماتها، وصبغت بالصبغة الآرامية. وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام، ولم يصل منها إلا بعض النقوش. ويرى كثير من الدارسين، أنَّ النقوش المذكورة، ليست على قدر كبير من الأهمية، لأنها ضحلة المادة ولا تشير إلى حقائق تاريخية واضحة، ولا تدل على طابع حضارية، فأكثرها يتناول أموراً شخصية كشراء جمل، ونزول فلان فى مكان ما. ويؤكد العديد من الباحثين أنَّ أصحاب هذه النقوش، عرب ليس بينهم وبين القبائل العربية فروق كبيرة.

أمَّا لغة هذه النقوش، فحوها فروض متعدّدة، فقد تكون عربية، أو كنعانية، أو آرامية، أو امتداداً للعربية الجنوبية، لكن الدراسات المبدئية الميدانية، للغة هذه النقوش، أثبتت أنَّها عربية أو قريبة من الأسلوب العربى.

وقد ظهر ذلك بعد حل رموز هذه النقوش بالعربية، فكان مفاد النقش التمودى: «ذ ن - ل ق ض - ب ن ت - ع ب د - م ن ت، أو.. ذين لقيض بنت عب - د مناة ...» هذا قبر لقيض بنت عبد مناة. (بيطار، ١٩٩٧م: ٩٤-٩٥)

ومفاد النقش الصفوى، بعد قراءة النقش من الشمال إلى اليمين: «ل ب ر د ب ن ا ص ل ح ب ن ا ب ح ر و ش ت ي ه د ر و ذ ب ح ف ه ل ت س ل م، أى - لُرد بن صالح بن أبجر وشَتَّى فى هذا المكان وذبح ذبيحة. يا لله أقدم لك السلام.» (المصدر نفسه)

إنَّ الخصائص اللغوية، وأسماء الآلهة والمعبودات المعروفة، لدى أصحاب هذه النقوش تدل على أنَّ كتابها كانوا من البيئة اللغوية الجاهلية. (وافى، لاتا: ٩٣؛ قدورة، ١٩٩٩م: ٦٦)

العربية الباقية

فهى لغة وسط الجزيرة العربية وشمالها، وهى التى تُسمَّى باللغة العربية الفصحى. وقد كتب لها الخلود بسبب نزول القرآن الكريم بها. فانتشرت لذلك انتشاراً واسعاً، كما لم تنتشر أى لغة أخرى من لغات العالم. (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٣٤؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ٣٠) «والعربية الباقية، هى التى ينصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها، والتى تستخدم اليوم فى البلاد العربية، لغة أدب وكتابة وتأليف. وقد نشأت هذه اللغة فى نجد والحجاز، ثم انتشرت فى كثير من المناطق التى كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية، وانشعبت منها اللهجات التى يتكلم بها فى العصر الحديث، فى بلاد الحجاز ونجد واليمن، وما يتاخمها ويتصل بها من إمارات مستقلة، وفى فلسطين، والأردن، ولبنان، والعراق، والكويت، ومصر والسودان، وبلاد المغرب العربى، ومالطة. وقد وصلت إلينا العربية الباقية، عن طريق آثار العصر الجاهلى والقرآن والحديث، وآثار العصور الإسلامية المختلفة.» (وافى، لاتا: ١٠٣)

ولم يعثر العلماء على آثار كافية توضح حالتها الأولى، فالنصوص الشعرية المنسوبة إلى الجاهلية، تقدم لنا العربية ناضجة، لا أثر فيها للبدايات الأولى، كما أن هذه النصوص، تقدم لنا الفن الشعرى مكتملاً، لا أثر فيه للمراحل التى قطعتها من قبل، فالمشكلة هى ضياع طفولتين معاً، هما طفولة العربية، وطفولة الشعر الجاهلى. (قدورة، ١٩٩٩م: ٧٤)

امتياز العربية

يرى علماء اللغة، أن العربية توفر لها عاملان، لم يتوافر لغيرها من اللغات السامية: أحدهما، أنها نشأت فى أقدم موطن للساميين، وثانيهما، أن الموقع الجغرافى لهذا الموطن قد ساعد على بقائها حيناً من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها، وبقي فيها من تراث هذا اللسان ما تجرّد منه أخواتها السامية، فتميزت عنها بفضل ذلك بخواص كثيرة يرجع أهمها إلى الأمور الثلاثة الآتية:

١- أنها أكثر أخواتها احتفاظاً بالأصوات السامية. فقد اشتملت على جميع الأصوات التى اشتملت عليها أخواتها السامية، وزادت عليها بأصوات كثيرة لا وجود لها فى واحدة منها: الثاء والذال والغين والضاد والظاء. (أنيس، ١٩٧٣م: ٣٣)

٢- أنها أوسع أخواتها جميعاً وأدقها في قواعد النحو والصرف، فجميع القواعد التي تشتمل عليها اللغات السامية الأخرى توجد لها نظائر في العربية، بينما تشتمل العربية على قواعد كثيرة لا نظير لها في واحدة منها، أو توجد في بعضها في صورة بدائية ناقصة. ومن أبرزها خاصية الإعراب، والذي اشتهرت باسم قواعد الإعراب، والتي يتمثل معظمها في أصوات مد قصيرة تلتحق أواخر الكلمات؛ لتدلّ على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة. وهذا النظام لا يوجد له نظير في أية أخت من أخواتها السامية، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية في العبرية والآرامية والحيشية.

٣- أنها أوسع أخواتها ثروة في أصول الكلمات والمفردات، وترتد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول، ولا يوجد لها نظير في أى أخت من أخواتها؛ هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة: اسمها وفعله وحرفها، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال، ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى، بل يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم. فقد جمع للأسد خمسمائة اسم، والثعبان مائتا اسم وكتب الفيروزآبادي كتاباً في أسماء العسل فذكر له أكثر من ثمانين اسماً، وقرّر أنه لم يستوعبها جميعها. (السيوطي، لا تا: ٣٢١/١ - ٤٠٧، ١٤٠)

ويري الفيروز آبادي أنه يوجد للسيف في العربية ألف اسم علي الأقل، ويقرّر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية، ويوجد لكل من المطر، والريح، والنور، والظلام، والناقة، والحجر، والماء، والبئر، أسماء كثيرة، وكذلك الشأن في الأوصاف: فلكل من الطويل، والقصير، والكريم، والبخيل، والشجاع، والجبان، في اللغة العربية عشرات من الألفاظ. (وافي، لاتا، بتصرف: ٢٠٤، ١٦٢، ١٥٥؛ وللتوسع: عبد التواب، ١٩٩٩م، الباب الرابع: ٢٢٧)

ثم إنَّ الأصل الواحد في اللغة العربية، يتوارد عليه مئات من المعاني، بدون أن يقتضى ذلك أكثر من تغيرات في حركات أصواته الأصلية نفسها، مع زيادة بعض أصوات عليها أو بدون زيادة، وإن كل ذلك يجرى وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ، نظير ما نرى في الأصل (ع ل م): «عَلِمَ، عَلِمْنَا ... أَعْلَمَ، يَعْلَمُ، نَعْلَمُ ... اعْلَمْ، اعْلَمِي، عَلَّمْ، نَعْلَمْ، تَعْلَمْ، تَعَالَمْ، عَلِمِ، يُعْلَمُ، عَلِمَ، عَلِمَتْ، علامة، علوم، أعلام، علامات، عالم، عليم، علامة، علماء، عالمون، متعلِّم، متعلِّم، مُعَلِّم، معلوم، عالم، عالمون ...»

ولم تصل أية لغة سامية أخرى في هذه الناحية إلى هذا العدد من تنوع المفردات. ناهيك عما يتوارد علي الأصل الواحد، من معانٍ أخرى، عن طريق الاشتقاق الكبير والأكبر. (أمين، ٢٠٠٠م: ١-٣)

يقول وافي: «ولها خواص أخرى كثيرة منها، طريقتها في تصغير الأسماء، وقد ظهر للباحثين منذ أقدم عهدها وليست مستحدثة، بدليل وجودها في أسماء الأمكنة والأشخاص: حنين، كليب ... ومن ذلك طريقة التعريف، فهي في العربية (ال) في أول الكلمة؛ وفي العبرية وفي بعض اللهجات العربية البائدة حرف (هـ) في أول الكلمة؛ وكانت في السبئية حرف نون في آخر الكلمة، وفي السريانية حرف (آ) في نهاية الكلمة. أمّا الآشورية-البابلية والحبشية، فلا أداة للتعريف فيها مطلقاً. ومن خصائصها علامة الجمع: فهي في العبرية حرف (يم) للمذكر، والواو والتاء للمؤنث، وفي الآرامية حرفا (ين)، في حين أنه في العربية يستخدم للدلالة علي جمع المذكر الواو والنون في الرفع، والياء والنون في النصب والجر، في آخر الكلمة، وللدلالة علي جمع المؤنث السالم الألف والتاء في آخر الكلمة، وللدلالة عليهما معاً صيغ جمع التكسير، وهي كثيرة.» (فقه اللغة، لاتا: ١٧)

وأما نظام جمع التكسير، فلا يشارك اللغة العربية فيه بين أخواتها السامية إلا اليمنية القديمة والحبشية، غير أن العربية قد توسعت في استخدامه توسعاً كبيراً، حتى أصبح للمفرد الواحد فيها عدة جموع من هذا النوع. (نفسه: ٢١٠، ١٦٢)

ولما اكتملت لها بذلك أدوات التعبير عن أدق الأمور وأطف المعاني، شرفها الله تعالى بتنزيل كتابه العزيز، وصانها من الزوال والاندثار، فتيسرت لها بسبب ذلك، سبل البقاء والانتشار، في أرجاء واسعة من الأرض، ما لم يتيسر لأية لغة من لغات البشر.

النتيجة

لقد بدا من الأسطر السابقة أن اللغات السامية التي أطلقت حديثاً، علي مجموعة من اللغات، كالعربية والعبرية والسريانية، وغيرها، قد عرفها علماء العربية القدامي، وخبروا بعض خصائصها، والعلاقة بينها، ولم تكن كشفاً جديداً كلَّ الجدة. وإنما أراد المحدثون بهذه التسمية، تمييز اللغات التي تجمعها خصائص مشتركة، عن غيرها من الفصائل اللغوية الأخرى، كالهندية-الأوربية، والطورانية، والكوشية، وغيرها.

وتبين من البحث:

- أن الحديث عن تقسيم الشعوب السامية لم يصل إلى رأى قاطع وموقف حاسم، تطمئن إليه النفس، ويعول عليه الفكر.

- أن أغلب اللغات السامية، لم يعد لها وجود واقعي، لا علي صعيد المحادثة والكتابة والتأليف، ولا علي صعيد القراءة والمطالعة، فقد بادت وأصبحت أثراً بعد عين، إلا القليل منها، كالعبرية، والسريانية، والحبشية، والأخيرتان تستخدمان في نطاق ضيق جداً.

- كما تبين من خلال البحث، صلة اللغات السامية بالعربية، وعلاقة العربية بها، غير أن العربية هي التي تستخدم اليوم علي نطاق واسع، وتمتاز بخصائص كثيرة عن أخواتها السامية، في الأصول والمفردات والقواعد، وبلغت في ذلك درجة عالية من السعة والاكتمال.

- وأن اللغة العربية، أكمل اللغات السامية وأنضجها، وأقدرها علي التعبير عن مختلف القضايا. مما شرفها بحمل معجز كلام الباري -عز وجل- وحبها باحتضان حديث نبيه الخاتم (ص)؛ كي تنال بذاك التشريف، وهذا الحباء من السعة والمكانة، والبقاء والانتشار، في آفاق رحبية من البسيطة، ما لم تنله لغة أخرى، علي وجه الأرض. وحسبها ذلك علواً وقدرأً وفخراً.

- و مما تقدم يمكن أن نقرر بما لا شك فيه ولا ريب أن اختيار العربية - أكمل اللغات - لإبلاغ أكمل الرسائل لم يكن عملاً اعتبارياً، ودون قصد من لدن الشارع الحكيم. وعملية الإبلاغ تتطلب الإبانة عن المقاصد، ومن أهم وسائل الإبانة لغة الخطاب. وفي العربية من مفردات الإبانة، وأساليبها، ما لم تملكها، بقية الساميات.

وحسبنا ما بيننا، وما نطقت به الآيات الآتية من كتاب الله العزيز: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧) و﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَي قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥)

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأحمد، سامى سعيد. ١٩٧٥م. السومريون وتراثهم الحضارى. العراق: منشورات الجمعية التاريخية العراقية.

أمين، عبد الله. ٢٠٠٠م. الاشتقاق. ط ٢. القاهرة: مكتبة الخانجي.
الأندلسى، ابن حزم، أبو محمد، على بن أحمد بن سعيد. ١٣٤٥ق. الإحكام فى أصول الأحكام. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الأنطاكي، محمد. (لاتا). دراسات فى فقه اللغة. ط ٤. بيروت: دار الشرق.
أنيس، إبراهيم. ١٩٧٣م. فى اللهجات العربية. ط ٣. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
— ١٩٧٥م. من أسرار العربية. ط ٥. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
بروكلمان، كارل. ١٩٧٧م. فقه اللغات السامية. ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب. الرياض: جامعة الرياض.

بيطار، إلياس. ١٩٩٧م. الأبجدية الفينيقية والخط العربى. ط ١. دمشق: دار المجد.
الحموى الرومى، الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبدالله، ياقوت بن عبد الله. (لاتا). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.

رجبى، كمال. ١٩٦٣م. دروس اللغة العبرية. ط ٣. دمشق: مطبعة جامعة.
السامرائى، إبراهيم. ١٩٨٥م. دراسات فى اللغتين السريانية والعربية. ط ١. بيروت: دار الجيل.
السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن. (لاتا). المزهرة فى علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وزميله. لامك: دار إحياء الكتب العربية.

الصالح، صبحى. ١٩٧٦م. دراسات فى فقه اللغة. ط ٦. بيروت: دار العلم للملايين.
طليمات، غازى مختار. ٢٠٠٠م. فى علم اللغة. ط ٢. دمشق: دار طلاس.
ظاظا، حسن. ١٩٩٠م. الساميون ولغاتهم. ط ٢. دمشق: دار القلم.
عبد التواب، رمضان. ١٩٩٩م. فصول فى فقه اللغة العربية. ط ٦. القاهرة: مكتبة الخانجي.
عبّودى، هنرى س. ١٩٩١م. معجم الحضارات السامية. طرابلس، لبنان: جروس برس.
فرستيج، كيس. ٢٠٠٣م. اللغة العربية. ط ١. ترجمة: محمد الشرقاوى. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
فيشر، فولفديتريش. ٢٠٠٢م. الأساس فى فقه اللغة العربية. ط ١. ترجمة: سعيد حسن بحيرى. القاهرة: مؤسسة المختار.

قدورة، أحمد محمد. ١٩٩٩م. مدخل إلى فقه اللغة العربية. ط ٢. دمشق: دار الفكر.
(الكتاب المقدس، أى كتب العهد القديم والعهد الجديد). ١٩٠٧م. بيروت: المطبعة الأمريكية.
معن، مشتاق عباس. ٢٠٠٢م. المعجم المفصل فى مصطلحات فقه اللغة المقارن. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية.

موسكاتى، سبتيانو. (لاتا). الحضارات السامية القديمة. ترجمة: السيد يعقوب بكر. القاهرة: دار الكتاب العربى.

- موسكاتى، سباتينو، وآخرون. ١٩٩٣م. مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن. ط ١. ترجمة: مهدى المخزومى، وعبد الجبار المطلبي. بيروت: عالم الكتب.
- نولدكه، تيودور. ١٩٦٤م. اللغات السامية. ترجمة: رمضان عبد التواب. القاهرة: مكتبة دار النهضة العربية.
- هلال، عبد الغفار حامد. ٢٠٠٤م. العربية خصائصها وسماتها. ط ٥. القاهرة: مكتبة وهبة.
- وافى، على عبد الواحد. (لاتا). فقه اللغة. ط ٦. القاهرة: دار نهضة مصر.
- ولفنسون، أ (أبوذؤيب). (لاتا). تاريخ اللغات السامية. بيروت: دار القلم.